المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الثامن والثمانين

١ مايو سنة ١٩٣٦ — ١٠ صفر سنة ١٣٥٥

بعد ستين سنة

ذكريات في عهد الصبا

لاحد منشئي المقتطف

مضى على المقتطف ستون سنة كاملة . ولذلك يلتبونهُ بشيخ المجلات العربية واعني بذلك انهُ اقدمها عهداً ولا ادعي انهُ شيخها علماً . ولكن قراءهُ لم يعتادوا ان يقرأوا فيهِ منذ انشائهِ الاَّ ما يقتطفهُ لهم من ثمر ناضج وينقلهُ اليهم من رأي خير ويطعمهم عليهِ من خلاصات ابحاث العلماء ونتائج تجارب الخبيرين وعجائب اكتشافات المكتشفين وغرائب اختراعات المخترعين ونحو ذلك مما قلَّ ان يؤثر عن الشبان ويغلب ان يختص بالكهول والشيوخ . فلا غرابة اذا كان قراء المقتطف لم يتصوروا منشئيهِ (وخصوصاً اذا لم يكونوا يعرفونهما) الاَّ شيوخاً منذ بدء انشائهِ كما صارا اخيراً وكما لايزال احدهما (كاتب هذه السطور) الى هذا العهد . ومن الشواهد على ذلك انهُ في سنة ١٨٧٦ كان المغفور لهُ رياض باشا وزيراً للمعارف المصرية في عهد المغفور لهُ الخديوي اسمعيل باشا فلما اصدرنا المقتطف في بيروت تلك السنة واطلع دولتهُ عليهِ انزلهُ منزلة رفيعة في اعتبارهِ وجرت بيننا وبينهُ مراسلة حفظناها لهُ بالشكر والثناء على الفضل الى هذا اليوم. وفي سنة ١٨٨٠ زرنا كلانا مصر وكان دولتهُ رئيساً للنظار حينئذٍ . وأتينا ديوان الوزارة للتسليم على دولتهِ . ودفعنا بطاقة الزيارة لمن يناط بهِ أمرها فلم يحفل بها كثيراً لانهُ رآنا شابين مجهولين عندهُ . ولكن اتفق انهُ كان بجانبهِ احد موظفي الداخلية المرحوم اسكندر بك زلزل وكان قد سمع عنا من بعض اقاربهِ فأدخل بطاقتينا الى دولتهِ . ولما اطلع عليها وقرأ اسمينا فيها نهض عن كرسيهِ

ووقف امام باب غرفته لاستقبال زائريه فوجدنا في وجهه فعرض علينا حاسباً اننا نقتحم الباب وسأل قائلاً اين حضرات منشئي المقتطف فأشاروا الينا ولا نزال حتى هذه الساعة نتصوَّر ما عراه من الدهشة والاستغراب ونتبسم كما تبسمنا حينما أيقن ان ذينك الشيخين منشئي المقتطف هما الشابان الخجلان الواقفان امامهُ وهذا الذي رأيناهُ من رياض باشا وصرَّح لنا به رأينا وسمعنا امثالهُ من آخرين على توالي الايام

ولهذا اقترح عليَّ الاستاذ فؤاد صرُّوف رئيس تحرير المقتطف اليوم أن أورد طرفاً مما أذكرهُ عن المقتطف ومنشئيهِ في اوائل عهده عسى ان يكون في ذلك فائدة للاحداث في بدء نزولهم الى ميدان الجهاد وخوضهم معترك الحياة

أنشئت المدرسة السورية الكلية المعروفة اليوم بجامعة بيروت الاميركية سنة ١٨٦٦ وكان اخي وشريكي المرحوم يعقوب صرُّوف من تلامذة اول فرقة نالت شهادتها وتخرَّجت منها سنة ١٨٧٠ وقضى ثلاث سنوات مشتغلاً بالتعليم في مدارس تعد التلامذة لها ثم عيَّنتهُ الكلية معلماً ومساعداً لاستاذ الطبيعيات والكيمياء فيها سنة ١٨٧٤

ودخلت انا تلك الكلية في خريف سنة ١٨٧٠ ونلت شهادتها وتخرَّجت منها في خريف ١٨٧٤ . فقضينا كلانا سنة ١٨٧٤ وهو معلم وانا تلميذ في فرقة المتنين ولما نلت الشهادة عيَّنتني الكلية معلماً للرياضيات ومساعداً لاستاذ علم الهيئة ومدير مرصدها الفلكي والميتورولوجي — العلامة الشهير المرحوم الدكتور كرنيليوس فانديك من اعظم اركان النهضة العلمية والادبية في سوريا ان لم أقل في سائر الاقطار الشرقية — وابتدأت الصداقة بيننا منذ تلك السنة واشتدت على توالي الايام حتى لم تفوَّ عليها صروف الدهر ولا حلَّ وثاقها حلول المنايا

وكنا في ساعات فراغنا كثيراً ما نجتمع معاً فيقضي احدنا الى الآخر بما سمع وما رأى وعلَّم وتعلم في يومهِ فاذا نحن كلانا معجبان اعجاباً عظيماً باجتهاد اساتذتنا وخصوصاً الاميركيين منهم: يأتي احدهم من بلادهِ وهو يجهل لغتنا وعاداتنا واخلاقنا فيكبُّ على تعلم لغتنا وحفظ كل ما يتصل بطبقهِ من عاداتنا وما يلحظهُ ويختبرهُ من اخلاقنا ويحرص على كل دقيقة من وقتهِ فلا يقضيها الاَّ في قضاء واجب او عمل نافع بحيث لا يطول عليهِ الزمن قبلما يتعلم لغتنا ويدرس علومها وآدابها ويقرأ كتبها ويعرف الشيء الكثير عن بلادنا واخلاق اهلها وعاداتهم ويصبح قادراً على التأليف فيها والترجمة من لغتهِ اليها . وأدَّى بنا هذا الاعجاب بهم الى الغيرة منهم والرغبة في ان نحذو حذوهم ونحرص على وقتنا حرصهم وتنظم معيشتنا على نمط تنظيمهم لمعيشتهم فجعلنا نقضي ثلث اليوم في الراحة والنوم وتخصيص ساعات معدودة بتناول الطعام والرياضة البدنية وما بقي نقضيهِ في الاستعداد لواجباتنا التعليمية والدرس والتحصيل لزيادة معارفنا العلمية ولقضاء

حاجاتنا الخصوصية بحيث يستغرق ذلك من ١٢ الى ١٤ ساعة يوميًّا . وعقدنا النية على ان نحافظ على وقتنا هذا بكل جهدنا فوجدنا ذلك صعباً في بادىء الامر ولكنهُ سهل وازداد سهولة على تمادي الايام حتى كنا اذا خالفناهُ نشعر بنوع من الاسف والالم كمن يأتي امراً ادًّا . ثم جعلنا نطالع ما يتصل بالكلية من الجرائد والمجلات العلمية الاجنبيّة على اختلاف انواعها واشتدت رغبتنا في مطالعتها بعد ما ذقنا لذة ما فيها من كل بحث طريف واكتشاف جديد واختراع غريب حتى صرنا نسابق الآخرين الى اختطافها حين وصولها لقراءتها قبل ان يفتقدها سوانا . فكان تأثير ذلك فينا ان ولّد فينا الرغبة في اذاعة ما تميه صدورنا واشتدَّ شوقنا الى الانتظام في سلك الكتّاب والمؤلفين من قومنا واشراك غيرنا معنا من ابناء وطننا في الاستفادة مما كنا نحن نستفيد منهُ وهذا ما حدا بنا الى العزم على انشاء جريدة علمية صناعية شبيهة من وجوهٍ مختلفة بالجرائد الافرنجية التي كانت تصل الينا لتكون صلة بين علوم الشرق والغرب وتنقل الى اخواننا اهل الشرق ما يجدهُ علمهُ عند اهل الغرب

وتردَّدنا مدة في بادىء الامر عن اخراج هذه الفكرة من القوة الى الفعل لاعتبارات لا يزال بعضها وجيهاً الى يومنا هذا ، فان مطلبنا الأول من انشاء هذه الجريدة كان شرح العلوم وبسطها لتأديتها الى افهام العامة وعدم الاقتصار على الخاصَّة الذين هم في غنى عنها . والعامة كانت في تلك الايام تنفر من العلوم الطبيعية خصوصاً إما لانها لا تعلم مبادئها فلا تفهمها وإما لاعتقادها انها تخالف الاديان وتناقض ما في الكتب المنزلة فتنفرُ منها . والخاصة ايضاً كانت معارفها في ذلك الزمان لا تتجاوز غالباً العلوم البسيطة وكان اكثرها يرى ان تعلُّم العلوم العالية لا يعين على كسب الرزق فيضر ولا ينفع والاولى الاعراض عنها وتعلم الحرف التي يعيش الانسان باحترافها . ولذلك كنا نخشى اننا اذا انشأنا جريدة علمية كالتي نفكر فيها يعرض الجمهور عنها فنعود عنها خائبين لعدم استنادنا عن مساعدة الجمهور لنا في حمل عبئها ونحن في مقتبل السن وراتبنا ضئيل لا يكفي لسد حاجتنا والبذل فوق طاقتنا . ثم اننا كنا نخشى ان الخاصة ايضاً لا يؤازروننا لان اكثرهم كانوا من طلاب اللغة العربية والمتأدبين بآدابها والراضين لانفسهم كالمرحومين الشيخ احمد فارس والشيخ ناصيف اليازجي والشيخ يوسف الاسير والشيخ ابراهيم الاحدب وامثالهم من علماء الشام وغيرها . وكانوا هم واتباعهم قلَّما يقدرون لغير اللغة العربية قدراً ولا لعلم غير علوم اهلها وادبائها مقاماً واذا قلت لهم ان زيداً اكتشف كذا وعمراً صنَّف كذا من علماء عصرنا ازدروا قولك واجابوك على الفور

« ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدم »

وكذلك الباقون من المتعلمين والمتأدبين بعلوم لغات اخرى وآدابها من يونانية ولاتينية وفقهية

ولاهوتية الخ . يرون ما يشبه رأيهم . ولم يكن للعلوم الحديثة وخصوصاً الطبيعية نصيب الاَّ في المدارس حيث ينحصر تعليمها في طلبة وفي جماعة شعارهم « كم ترك الاول للآخر »

ثم ان جمهور الخاصة والعامة كان معتاداً قراءة جرائد الاخبار والسياسة وبعض الجرائد الدينية والرسائل الادبية ولا يكاد يهمهُ غيرها

وزد على ذلك كلهِ ان الحكومة العثمانية لا ترخص بصدور جريدة في بلادها الاَّ بشق النفس والتوسل بأقوى الوسائط وأنفذها ولم يكن لنا سبيل حينئذٍ الى شيء من ذلك

***

فهذه العقبات حالت دون الوصول الى غايتنا مدةً . ولكننا كنا كلما سنحت فرصة ملائمة ولاحت بارقة امل يشتد الشوق بنا الى تحقيق رغبتنا وخصوصاً بعد ما كاشفنا اساتذتنا واصدقاءنا برغبتنا وشددوا عزائمنا ولذلك اعتمدنا في اواخر سنة ١٨٧٥ على ان نصدر في اول الامر جريدة شهرية قليلة الصفحات رخيصة قيمة الاشتراك ونعرضها على الجمهور على سبيل التجربة لمعرفة مقدار اقبالهِ عليها — أقول نصدر «جريدة» ولا اقول «مجلة» لان الكتَّاب لم يكونوا قد اصطلحوا على كلمة « مجلة » للتمييز بينها وبين الجريدة في ذلك الحين

وسمينا الجريدة المقتطف ثم استشرنا باستاذنا المرحوم الدكتور كرنيليوس فانديك للحصول على الرخصة من الحكومة لانهُ كان من اعظم المشددين لعزائمنا والمرغبين لنا في اصدارها لخدمة وطننا. فقد كان لهُ مَنٌّ على احد صاحبي كتاب آثار الادهار اخي المرحوم خليل افندي الخوري مدير معارف سورية حينئذٍ لكثرة ما كان يمدهُ بما يحتاج اليهِ من المعرفة والمشورة في تأليف كتابهِ فسعى لنا معهُ سعياً موفقاً وحصلنا على الرخصة بعد الانتظار شهوراً مع ان غيرنا لم يكن يحصل عليها الاَّ بعد الانتظار اعواماً في كثير من الاحيان وأصدرنا العدد الاول على سبيل المثال وحاولنا ان نرضي بهِ جمهور القائلين بفضل المتقدمين وجماعة المعترفين بعلم المتأخرين المتمثلين بقول الشاعر

وأني وان كنت الأخير زمانهُ لآتٍ بما لم تستطعهُ الاوائل

وضمناهُ مقالة في علماء الهيئة عند العرب كالخليفة المأمون وثابت بن قرة والبتاني والخوكندي والادريسي وذكرنا فيها طرفاً من علمهم ومكتشفاتهم وأردفناها بمقالة اخرى « في اللغة الحميرية والقلم المسند » ذكرنا فيها طرفاً مما اكتشفهُ الباحثون والمنقبون من الانكليز والفرنسويين من خرائب المدن الحميرية وآثارهم المكتوبة بالخط المسند بعد الذي ذكرهُ مؤرخو العرب من اخبار بلاد حمير وأسماء ملوكها ودونوهُ في كتبهم كحمزة الاصفهاني وأبي الفدا وابن خلدون والنويري والهمذاني . وصدَّرناهُ بالمقدمة التالية التي يستدل القارىء منها على بعض ما كانت الاحوال تقتضيه في تلك الايام

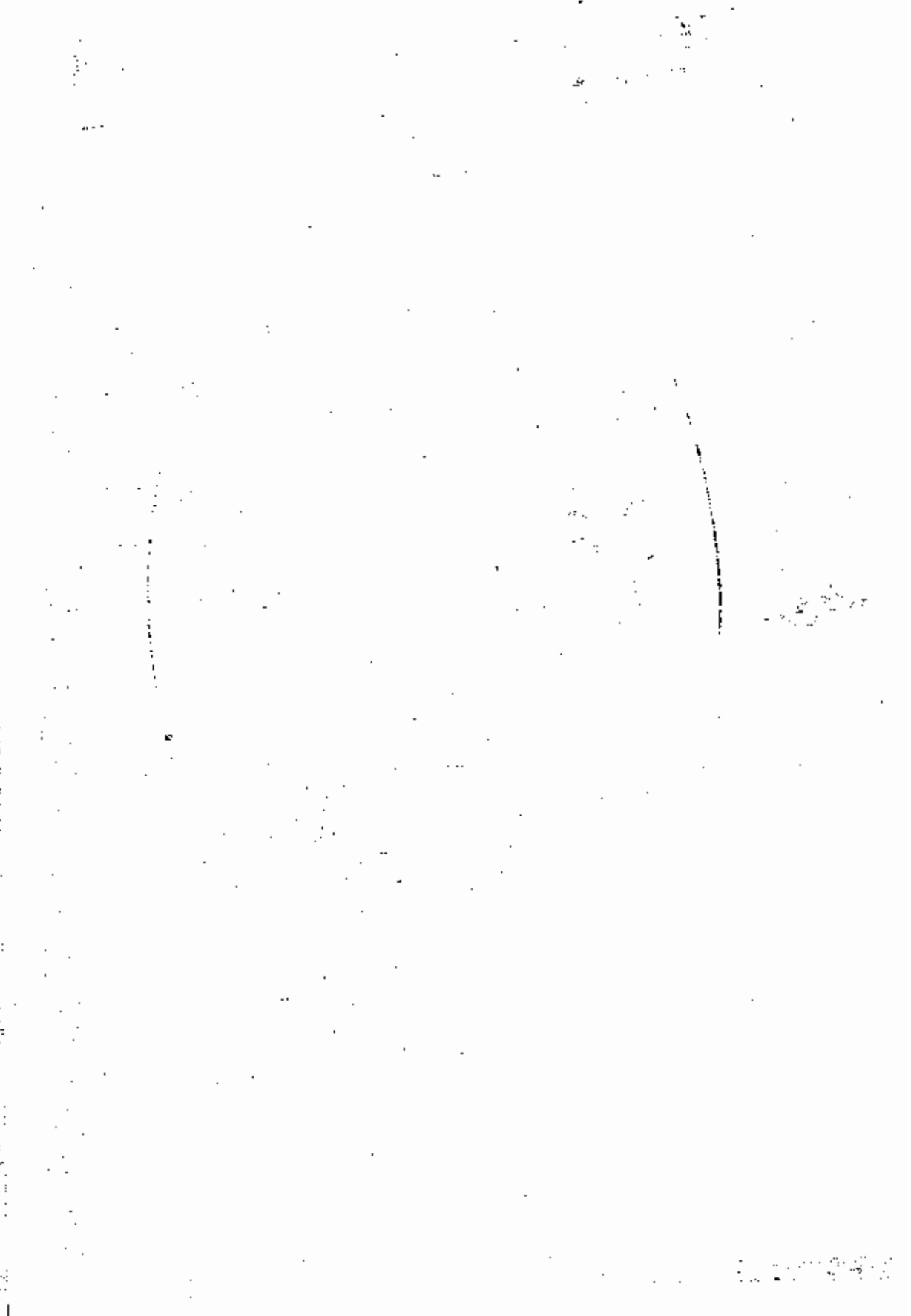

الدكتور يعقوب صروف فى كهولته
(١٨٥٢ — ١٩٢٧)

«لا ريب أن كل من يقف على هذا المثال يسرّهُ العمل الذي باشرناهُ خدمةً للوطن وإجابةً لطلب كثيرين من محبي التقدم ونشر الفوائد ولم نستشر فيهِ أحداً من ذوي الرأي الصائب الاَّ حثنا عليهِ وأبان لنا شدة احتياج الوطن إلى ما يتسنى بهِ الوصول إلى العلم والصناعة كهذا العمل وأمثاله . ولما رأينا مناسبة الاحوال لنا ووجوب ذلك علينا بمقتضى حق الوطن عزمنا مباشرتهُ على ما بنا من التصور مستعينين بهِ تعالى ونلنا الرخصة السامية فيهِ من جانب نظارة المعارف الجليلة بهمة الفاضل عزتلو خليل افندي الخوري الذي اشتهرت غيرتهُ على مصالح الوطن وقد أصبحنا مديونين لاساتيذ المدرسة الكلية السورية بالمساعدات التي وعدونا بها . ولنا الأمل الوطيد ان هذه الجريدة تقع عند الجمهور موقع القبول وترغّب الطلاَّب في إحراز العلم وإتقان الصناعة واحياء رميمها وترميم باليها لشدة افتقارنا اليها كليهما . على ان كثيرين يزعمون انَّا قد بلغنا من العلم غاية ما يحتاج اليهِ وان الاخرى بنا ان نقتصر على طلب الصناعة وذلك غير سديد . أمَا ترى ان الصناعة مؤسَّسة على العلم وانها انما تُتقَن بتهذيب العقل والذوق وان الصانع الحاذق هو العالم بأصول صناعتهِ وحقائقها وهذه لا تُعرَف جيداً الاَّ بدرس ما تأسَّست عليهِ من المبادىء العلمية . وكفانا برهاناً على ذلك ان الافرنج وغيرهم من الذين أتقنوا الصنائع يجتهدون في تعليم الافراد غاية الاجتهاد وبعضهم يوجبهُ شرعاً فالاحرى بنا ان نقصد العلوم من حيث تؤدّي الى الصناعة جادّين في تلك غير مهملين هذه ولا حاجة بعد الى الاطالة في ذلك فكل مَنْ وقف على مبادىء العلوم يرى لزوم معرفتها للصانع ولو اجمالاً

«ولعلَّ هذا المثال يدلُّ على طريقة بحثنا في المواضيع غير انها تكون في ما بعد اكثر استيفاء كما هو مذكور في محلهِ وربما كانت أسهل فهماً لانَّا سنقرّر المبادىء ثم نبني عليها وقد التزمنا هنا ان نفرض كثيراً من مبادىء العلم والصناعة معروفاً فبنينا عليهِ لضيق المقام وسنسلك تارةً مسلك التعليم وأخرى مسلك الشرح وتوجز تارةً وتسهب أخرى حسب الاقتضاء . ولما كانت مواضيعنا لا تدخل في المباحث الدينية ولا السياسية الاَّ من باب العلم فكل ما يرد الينا خارجاً عن هذا الباب غير مقبول . وأما الكتابات الطبية والصناعية فندرجها تحت اسم منشآت واذا تيسَّر نفرد هذه الجريدة أقلنا لها مكانين مخصوصين وكبَّرنا حجمها وقصَّرنا مدة صدورها وبالله التوفيق

« وقد رأينا على ما تعلَّمنا علماً واختباراً ان نذكر بعض ما يجب مراعاتهُ في درس المباحث الطبية والصناعية لتعمّ بهِ فائدة المطالعة على أقرب طريق وان كان ذلك اعادةً للعالم ففيهِ افادة للطالب

«اولاً — العلم يوصف باللذَّة ولكن لذَّتهُ لا يُشعَر بها الاَّ بعد ان يُذاق جيداً كما ان طعم الطعام لا يُعرَف الاَّ بعد ما يحلّلهُ اللعاب وتشعر بهِ الاعصاب فربَّ علم يسكر بهِ العالم لذَّة يجدهُ الخالي الذهن منهُ عديم اللذَّة . فاذا طالعت موضوعاً في عام من العلوم ولم يجد من القيمة

في نفسك ما يجدهُ في نفس غيرك فتعكف عليهِ فقلما تجدهُ قليل الاعتبار وكلما ازددت فيهِ تعمُّقاً ازددت لذَّةً وكما انهُ لا بدَّ دون الشهد من إبر النحل هكذا لا بدَّ دون العلم من الكد وتشغيل الدماغ لتروبض العقل

« ثانياً — اكثر ما يُدرَّج في المقتطف يقتضي انهُ امعان نظر فاذا قرأتهُ قراءة خفَّة لم تستفد منهُ شيئاً واذا أمعنت النظر في بعضهِ وأهملت البعض الآخر من موضوع واحد استفدت فائدةً ناقصةً وربما استفدتها فاسدة لتوقُّف صحتها على ما أهملت . فتروَّ في ما تقرأ ولا تنتهِ من جملة حتى تكون قد ادركتها جيداً وتمعَّن طويلاً فالقليل مع فهم خيرٌ من كثير بلا فهم . ولا تعتمد على الذاكرة فقط فان الحفظ غيباً بقطع النظر عن المعنى لا يفيد الاَّ نادراً والمعتمد على الذاكرة فقط اول مقصر في ميدان العقول وبيت الاحكام . واذا مللتَ من موضوع او كلَّ عصب الدماغ فاتركهُ ريثما تسترجع ثم عُد اليهِ وهكذا حتى يتضح لك فيسهل عليك حفظهُ حينئذٍ وقلما يخشى عليهِ من آفة النسيان وذلك وان تعسَّر اولاً يهون اخيراً

« ثالثاً — اذا استوعبت موضوعاً فأطل المذاكرة فيهِ ليرسخ في ذهنك قال الشاعر :

وأطل في العلم مذاكرةً فحياة العلم مذاكرته

« واجهد في ان تقرن العلم بالعمل فذلك من أفضل ما يثبت العلم في عقلك ويؤيِّد صحتهُ ويجني ثمرتهُ . وحيثما عُلِّم وعُمِل زادت الفائدة اضعافاً . وسيأتي عليك ذكر كثير من الآلات الجمة الاثمان على عظم فائدتها وشدة لزومها فلا تبخل على نفسك ووطنك بها وستقف على ذكر حوادث لا تحصى واقعة تحت الحسّ لا تكلِّفك الاَّ الملاحظة والتأمل أفما يجب ان تفضِّل ملاحظتها على الاحاديث الفارغة وقضاء الحياة سدًى . وقد وجدوا بالاستقراء ان العلوم الرياضية تقوِّي العقل وتدرِّبهُ على الاتجاه بكل قواهُ نحو امرٍ ما والانحصار في موضوع فلا يتشتت والعلوم الطبيعية توسِّعهُ : ترقيهِ وتلذُّ لهُ لسموِّها وطلاوة مباحثها والعلوم العقلية تعصمهُ مراعاتها عن ارتكاب الخطإ في فهم القضايا والعلوم اللغوية عن ارتكاب الخطإ في تأدية المراد الى غير ذلك من الفوائد التي لا تحصى ولا ينقل عنها . هذا وانَّا مقرُّون بعجزنا عن القيام بحق هذا المشروع ولنا الامل ان الواقف على كتاباتنا يسبل ذيل العذرة على ما يرى فيها من الخلل فان العفو من شيم الكرام وسبحان من تفرَّد بالكمال »

***

وانتظرنا شهراً بلغ سرورنا فيهِ مبلغاً عظيماً لانا وجدنا ان مثالنا وقع موقع القبول عند الجمهور فأقبلوا عليهِ اقبالاً فاق انتظارنا فتوكلنا على الله في اصدار مجلتنا رحيبة المثال العدد

الاول وصدورهُ في شهر ايار (مايو) سنة ١٨٧٦ وأخذ الله بيدنا فاستمرَّ صدورها الى ستها الستين فهي أقدم مجلة عربية حية حيث تُقرأ اللغة العربية في الاقطار الشرقية والغربية

وجعلنا دأبنا تحري الابحاث التي لا تخلو من طلاوة وفائدة لهواة القديم والحديث وللراغبين في الصناعة وتجربة ما يجدُّ منها وكذلك الشذرات واتبذ السهلة انهم تتخلل الابحاث العويصة حتى اذا ملَّ القارىء هذه ارتاح الى قراءة تلك وأقبل بعض اساتذتنا وأصدقائنا من طلاب العلم على مساعدتنا فنشرنا فصولاً للدكتور فانديك في تاريخ اطباء الشرق عموماً والعرب خصوصاً أعجبت محبي القديم كثيراً كما أعجبهم وأعجب محبي الحديث أيضاً النظام الشمسي والفرق بين علم المتقدمين به وعلم المتأخرين وكذلك مقالة عن القمر حوت مجمل علمنا به حتى اليوم من قديم وحديث . وأعجب الوالدات بما يكتبهُ اصدقاؤنا الاطباء عن الاعتناء بصحة الاطفال وما يكتبهُ السيدات المثقفات في تدبير المنزل الى غير ذلك مما لم يكن يطلع الجمهور عليهِ في الصحف الشائعة حينئذٍ الاَّ نادراً . وجعل القراء يسألوننا عما أشكل عليهم فهمهُ او ما يريدون علمهُ فأفرغنا جهدنا في اجابة طلبهم لعلمنا أن ذلك يزيد اجتذابهم الى قراءة مجلتنا مع علمنا انهُ يحملنا مشقة زائدة كما ثبت لنا بالاختبار ايضاً فكم من جواب على مسألة واحدة كان يستغرق وقتاً طويلاً ويضطرنا الى مراجعة كتب كثيرة ولكننا لم نستثقل ذلك لانهُ يزيدنا علماً ومعرفة كما يحب طلب السائلين . وقد أدَّى بنا ذلك على تمادي الايام الى الغوص على درر العلم والمعرفة في بحر مكتبة الكلية الواسعة . وأقول ولا أبالغ انهُ بعد مرور الاعوام لم يكد يفوتنا كتاب من كتبها العديدة التي تفهم نفائسها على اختلاف علومها وأبحاثها الاَّ اطلعنا عليهِ واغترفنا كثيراً او قليلاً مما فيهِ اجابةً لما يسألنا السائلون عنهُ

على ان سهر الايام والليالي على التنقيب في الكتب القديمة والحديثة واجهاد الدماغ في حل المسائل العويصة او تحرير المقالات الدقيقة كان أشهى الينا وأسهل علينا من مراجعة حسابات بعض المشتركين او مكاتبة الوكلاء لحثهم على زيادة المشتركين او تحصيل قيمة الاشتراك من المماطلين ونحو ذلك من اشغال المجلة المالية والمطبعية مما تعافهُ نفسنا ويمجهُ ذوقنا . فلذلك رأينا ان نتخلص مما لا ذوق لنا فيهِ ونتقطع الى ما تصبو نفسنا اليهِ فاتفقنا مع صديق الصبا اخي المرحوم شاهين بك مكاريوس الذي كان بارعاً بالامور المطبعية وادارة اشغال الجريدة المالية وعيناهُ مديراً لاشغال المقتطف ثم تحوَّلت العلاقة بيننا على توالي الايام واختلاف احوال الزمان والمكان الى شبه شركة عائلية اصحابها « صرُّوف ونمر ومكاريوس » اعضاؤها نحن الثلثة

قلت « اختلاف احوال الزمان والمكان » لأن مجلتنا وان كانت جعلت ديدنها تحاشي الابحاث الدينية والسياسية حذراً من مغباتها لم تسلم مع ذلك من محن خيف في اوائل نشأتها ان

تزعزع أساسها وتهدم بنيانها لو لم يبقَ لها القدر ما ذاد عن حوضها ووطد اركانها — والذي يراجع سني المقتطف يجد فيها ذكراً واشارات الى كثير من هذه المحن ولكني اقتصر على ذكر ثلاث منها لضيق المقام — احداها في الشهر السادس من بدء صدور المقتطف وسببها جواب عن سؤال عن دوران الارض في مقالة حتمناها بقولنا « ولعل المطالع لا ينتقد علينا اذا قلنا ان الذين يعترضون على دوران الارض إما ان يعترضوا تعصباً زاعمين انهُ يخالف ما في الكتب المنزلة وهو وهمٌ محض او يعترضوا ابتغاء الشهرة كما فعل « كاسر مزراب العين » . وهو مثل عندعامة سورية يضرب لمن يبغي الشهرة بعمل ما يضر الناس . والاشارة فيه الى كاتب نشر « امالي فلكية » كثيرة الاغلاط املية . فهاج كلامنا هذا قطباً من اقطاب الطوائف المسيحية وهو نائب بطريرك الطائفة الارثوذكسية وكان من أبلغ خطبائها ومن اكبر علمائها المعدودين في زمانه ولهُ منزلة سامية لجلالة قدره ولكلامه نفوذ عظيم . فأرسل الينا مقالة حمل فيها على المقتطف حملة منكرة بحجة انهُ يعلّم الناس تعليماً مخالفاً لما في الكتب المنزلة بادعائه ان الارض تتحرك والشمس ثابتة . فندمت ندامة الكسعي على كتابتي تلك العبارة في ختام المقالة التي كنت انا كاتبها وخفت ان يقضي بسببها على المقتطف كما قضى على العلامة غليليو لقوله ان الشمس ثابتة والارض متحركة وحاولت ردَّ تلك الحملة بالحسنى فلم أفلح واضطررنا الى نشر المقالة في المقتطف لاصرار صاحبها على نشرها . وبينما نحن نحسب لتأثيرها حساباً كبيراً إذ نشرها أتانا الغوث من مصر القاهرة على غير انتظار . فقد كان المغفور لهُ رياض باشا وزيراً للمعارف المصرية حينئذٍ في عهد المغفور لهُ الخديوي اسمعيل باشا كما تقدم عليه الكلام فلما اطلع على المقتطف ارسل الينا يقول ان رأي ثبوت الارض الذي يراهُ حضرة المأمور البطريركي مغلوط وفاسدٌ ديناً وعلماً . وشفع ذلك برسالة مطبوعة بقلم انعام الكبير المرحوم عبد الله بك فكري وكيل نظارة المعارف حينئذٍ عنوانها « مقارنة بعض مباحث الهيئة بالوارد في النصوص الشرعية » اثباتاً لموافقة علم الهيئة الحديث ودوران الارض لدين المسلمين فنشرنا منها شيئاً كثيراً وكان لها وقع عظيم عند الجمهور وبذلك خرج المقتطف من هذه المعمعة فائزاً وزاد القراء عليه اقبالاً

والمحنة الثانية سببها جواب المقتطف عن سؤال عن السحر بان السحر باطل غير صحيح وهو من شعوذات المشعوذين وخداع المخادعين . وكانت جريدة البشير وهي لسان حال الآباء اليسوعيين في بيروت تعقب المقتطف لتأخذه بجريرة كل عبارة يمكن ان تؤولها بما ينفر القارىء منهُ او يوغر صدرهُ عليه وذلك لاسباب يظهر انها زالت الآن والحمد لله فلا نحيها بالعودة الى ذكرها . فما قرأت جوابنا على السحر حتى تناولت المقتطف باللوم والتعنيف وقامت تحذر القراء من قراءته بحجة انهُ مخالف للدين وخصوصاً دين المسلمين . ولكن أنبرى لها المرحوم

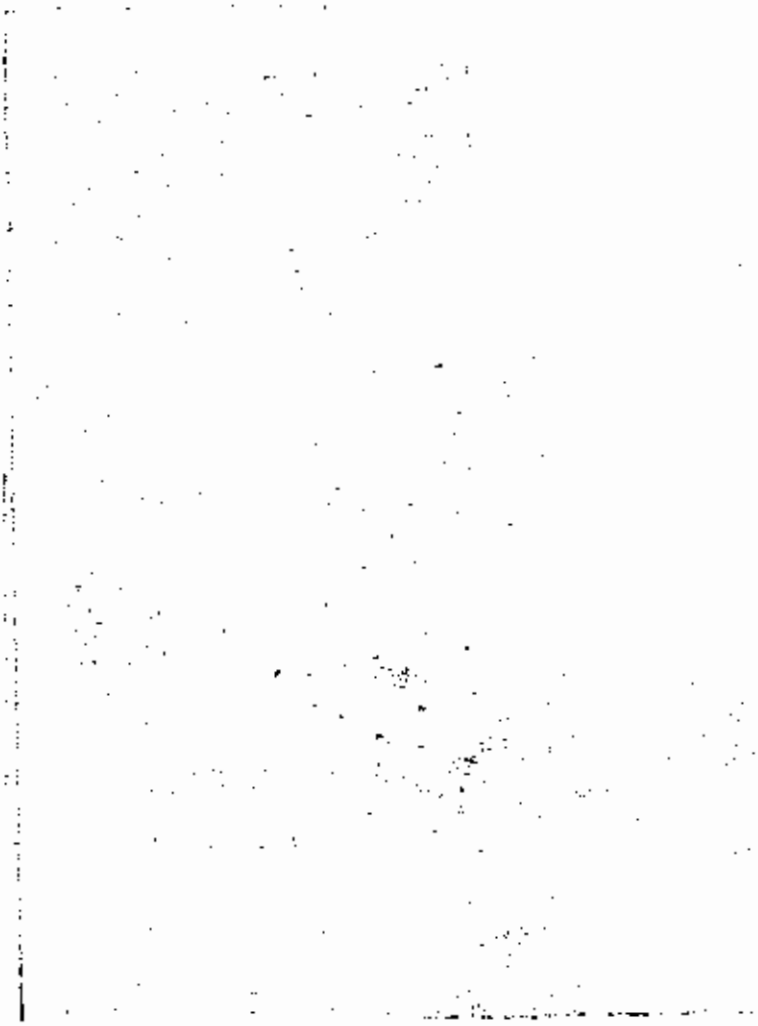

الامام الشيخ يوسف الاسير خطَّأها ودفع افتراءها على المقتطف وكانت النتيجة خروج المقتطف من هذه المحنة ايضاً فائزاً غانماً وزادت مكانتهُ في اعتبار القراء عموماً . وعلى توالي الايام زاد اقبال العلماء والكتَّاب على المقتطف واتسع انتشارهُ في الاقطار العربية جميعاً وكثرت علاقاتهُ بأهل العلم والادب والفضل بحيث لم يكد يفوتنا التعارف او التراسل مع كثيرين من مشاهيرهم المشارقة او المغاربة سواء كانوا في بلاد العرب او حيثما تقرأ اللغة العربية في ايران والهند الى اواسط آسيا . وازدادت المواد التي ترد على المقتطف في كل شهر حتى لم يعد فيهِ متسع لقسم عظيم منها وخصوصاً لما كثرت المناظرة بين العلماء الرياضيين في سورية ومصر وفي طليعة هؤلاء الاخيرين السريَّان المرحومان شنيق بك منصور وادريس بك راغب . فرأينا حينئذٍ ان الوقت قد حان لتكبير المقتطف انجازاً لوعدنا في بدء صدوره فزدنا عدد صفحاتهِ وجعلناها ٦٤ صفحة شهريًّا بدلاً من ٢٤ وذلك من أول سنتهِ السادسة . وانشأنا مع فريق من علماء سورية واطبائها المجمع العلمي الشرقي وجعلنا المقتطف لسان حالهِ لنشر محاضرات اعضائهِ ومقالاتهم فيهِ . واتسع الميدان لاقلام الباحثين والكتَّاب حتى عمَّ الابحاث التي كانت تهيج خواطر العالم في تلك الايام بانتشار آراء داروين ورفقائهِ العلماء في النشوء والارتقاء . وكثر الاخذ والعطاء حينئذٍ بين الكتَّاب والباحثين على صفحات المقتطف . وحدث لسوء الحظ في السنة الثامنة من سني المقتطف اضطراب في دوائر العلم التي نشأ وترعرع فيها ودارت الحوادث دورتها وامتدت ايدي الكائدين لهُ على غير ذنب ولا جريرة منهُ سوى انتشاره والاقبال عليهِ الى نصب الشراك لهُ مما نمسك الكلام عنهُ لانتقال الجميع الى رحمة ربهم غفر الله لنا ولهم . وكانت عاقبة هذه المحنة ان المقتطف زايل مهد العلم الذي رُبي فيهِ وهجر بيروت الى الكنانة في سنتهِ التاسعة اي سنة ١٨٨٥ . وهو من ذلك الحين الى ان تمَّ الستين متفيء ظلال مصر راتع في نعيم وادي النيل يدعو للملكة وحكومتهِ بالعز والتأييد ولاهليهِ اهليهِ واخوانهِ اخوانهِ بالعيش الرغيد والمستقبل السعيد

بقي عليَّ ان اقول كلمة لجلاء موقفي من المقتطف بعد صدور المقطم . فبعد الهجرة الى مصر فتحنا مطبعة كاملة العدة لطبعهِ وطبع ما يأتينا من الخارج لستين بهِ على سدِّ نفقاتنا ونفقاتهِ . وكانت عواقب الحوادث العرابية قد اوقعت مصر في ازمة مالية ظلت تئن من عسرها اعواماً . فلم يرد على المطبعة مطبوعات بسد الربع منها الحاجة او تكفي لادارة المطبعة فآلمنا المرحوم شاهين بك مكاريوس اللطائف وكنا نحررها الفصول التاريخية والمواضيع السهلة الطلية رجاء ان تروج بين العامة وتساعد على ادارة المطبعة فلم يأتِ ذلك بالفائدة المرومة . ولذلك خطر لبعضنا ان نصدر جريدة اسبوعية تنشر الاخبار المحلية ومقتطفات سياسية عمومية فعارضتُ في ذلك كراهة الاشتغال بغير العلم وتخوفاً من عواقب الدخول في مآزق السياسة حتى اشتدَّت

الحاجة الى تدبير عمل كاف للمطبعة . وجعلنا نفكر إما في اصدار جريدة اسبوعية او الهاجرة الى الولايات المتحدة الاميركية كما كان قد خطر لنا قبل الهجرة الى الديار المصرية . ولكن تغلَّب رأي شريكيَّ رحمهما الله على رأيي وأزمعنا اصدار جريدة اخبارية اسبوعية تكفي مع المقتطف لادارة حركة المطبعة وتثمير رأس المال الذي انفق عليها . وبينما نحن نستعد لذلك شاء القدر ان يتصدَّى لنا من استخفَّ بعزَّة نفسنا واستغرَّنا الى استبدال الجريدة الاسبوعية بجريدة يومية رغماً عنا . وسبحان من قسم الحظوظ فقد قسم لي أن أحمل أعباء هذه الجريدة اليومية وأفقد راحتي ولذتي وما تميل اليه فطرتي من الاشتغال بالعلم وتحرير المقتطف وجعله ان يكون دخل الجريدة اليومية معوناً لنا على إدامة المقتطف وانقطاع زميلي الى تحريره عن كل عمل سواه . ولا أتعرض هنا لذكر شيء مما لقيت من جراء الاشتغال بالسياسة وخوض معاركها على سبيل الاشتغال بالعلم في قول الصدق والانتصار للحق لا يثنيني عنهُ ارهاب بوعيد ولا وعود بمال ورتب ورياشين وما قاسيتُ من المتاعب التي كثيراً ما غادرتني اقضي الليالي وأنا اتقلب على فراش الهموم والغموم من تعاقب الاضطهاد تلو الاضطهاد بسبب الدسائس التي تحاك لنا في الظلام وان اكتم خبرها في اعماق صدري مخافة ان يدري بها شريكاي فيضطربا فلا يستطيع احدهما متابعة الدرس والمطالعة وتحرير المقتطف بما يقتضي لذلك من راحة البال وصفاء الذهن ولا يستطيع شريكي الآخر القيام بأشغال المطبعة والجريدة والمجلة بما يقتضي من الامن والاطمئنان . واذا قلقا قلقي واضطربا اضطرابي بارت الاشغال وساءت حال العمل والعمال ولذلك بلغ بي انني كنت اتلقى اخبار الحكم عليَّ بالاعدام من الناقمين عليَّ بسبب سياسة المقطم وانا صامت حتى ألفت الصبر على المكايد ولم أعد أعبأ بتلك الاحكام بعد ما تكررت عليَّ تلاثاً بالاعدام وهي لا تزال محفوظة بين اوراقي يقرأها من تقع اليه يدي ويترحم على مصدريها كما اترحم انا عليهم اليوم بعد ما بلغت من العمر عتيًّا ولم يبق احدٌ منهم حيًّا فبعضهم مات حتف انفه وبعضهم مات قتلة او باتفاذ حكم الاعدام فيه . وعما قليل ستجتمع امام الديان العادل جميعاً فلست بواجدٍ عليهم بل أسأل الغفران لي ولهم لأني كنت احسبهم ظالمين فأطعن في ظلمهم وكانوا يحسبونني جانياً مذنباً فيحكمون عليَّ حسب اعتقادهم . وما دمت في قيد الحياة فأرجو من فضل ربي ان يمنَّ عليَّ بالصحة طول ما بقي لي ، والتحرُّر من اغلال الاشغال التي لا ازال مكبلاً بها طوعاً لمقتضى الحال لاستأنف دروسي حيث تركتها واعود الى التحرير في المقتطف في اواخر عمري اجتناءً للذة التي كنت اتمتع بها في اوائل امري

هذه بعض الخواطر والذكريات التي استخرجتها الذاكرة من دفائن ستين عاماً من اعوام التجربة والاختبار أوردتها عسى ان يجد فيها احداث هذا العصر شيئاً يساعدهم في مستقبل ايامهم واسأل الله الخير لي ولهم

فارس نمر

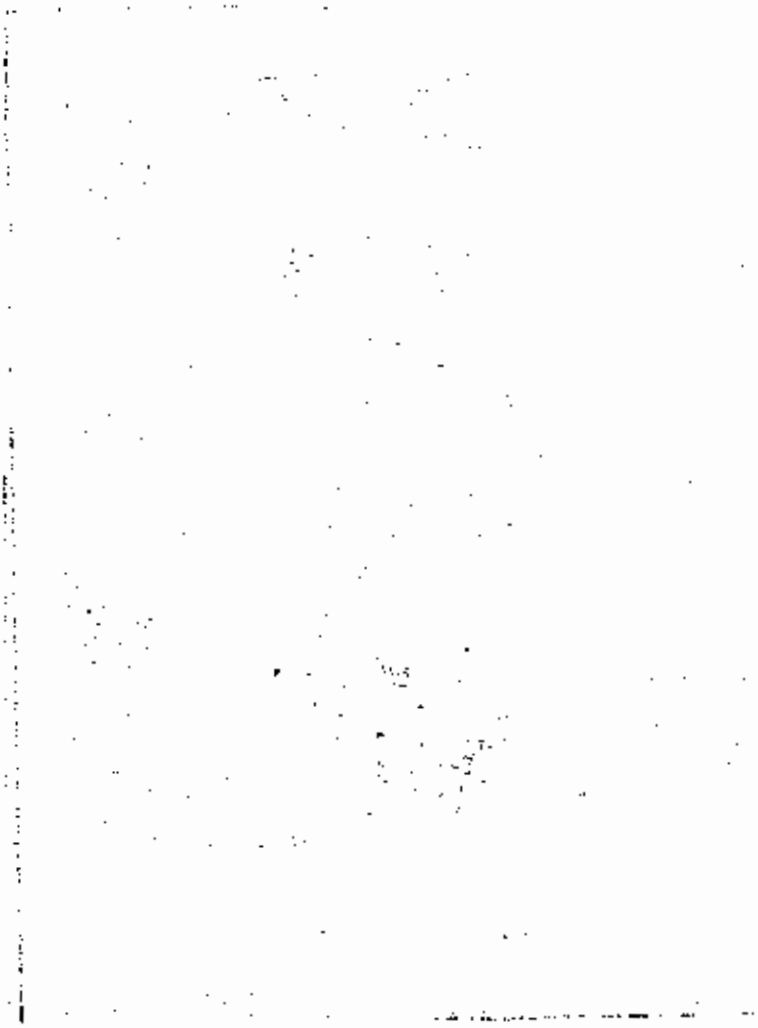

الدكتور فاضل نظمي

الدكتور مصطفى الشهابي

الدكتور علي عامر باشا